

قد يسبق إلى الفهم من ذكر (علوم القرآن) تلك العلوم التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم كعلم التوحيد أو علم الفقه ونحوهما، ولكن هذه العلوم أو المعارف القرآنية ليست هي المقصودة إذا أردنا (بعلوم القرآن) المعنى الاصطلاحي، ذلك أن القرآن الكريم منذ نزوله صار محوار لعلوم شتى، تتناول جوانب الدارسات القرآنية المتنوعة كعلم القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك. وقد نشأت هذه العلوم مع نزول القرآن الكريم وكان من أولها ولا شك علم التفسير الذي أرساه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أخذ عنه بعض أصحابه فتحدثوا فيه وعرف عنهم وأخذ عنهم التابعون، المبرد وله كتاب معاني القرآن. تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن ومنها كتاب ابن عباس رواه مجاهد ورواه عن مجاهد حميد بن قيس. ومعاني القرآن للأخفش. الكتب المؤلفة في غريب القرآن ومنها كتاب غريب القرآن لأبي عبيدة. - 19 - البازر. الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن ومنها كتاب الخليل في النقط. وكتاب اللامات للأخفش سعيد. والابتداء عن حمزة. الكتب المؤلفة في وقف النمام ومنها كتاب أحمد بن عيسى اللؤلؤي، العباس المبرد. المعتزلي. وكتاب ابن شبيب. وكتاب حمزة بن حبيب. الكتب المؤلفة في أجزء القرآن ومنها كتاب أبي عمرو الدوري. سلام. الكتب المؤلفة في ناسخ القرآن ومنسوخه ومنها كتاب حجاج الأعمش وكتاب ابن أبي داود السجستاني. الكتب المؤلفة في نزول القرآن ومنها كتاب الحسن بن أبي الحسين. بن إسحاق القاضي. الكتب المؤلفة في معاني شتى من القرآن ومنها كتاب أحمد بن علي المهرجاني المقرئ في جوابات القرآن، الغرياني، كتاب المجاز لأبي عبيدة، كتاب قطرب فيما سأل عنه الملاحدون من آي القرآن، كتاب المسائل في القرآن للجاحظ، كتاب المخلوق لأبي علي الجبائي، كتاب الحروف تأليف عبد الرحمن بن أبي حماد الكوفي، كتاب بشر بن المعتمر في متشابه القرآن، كتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لمحمد بن يزيد الواسطي(1) ومن خلال ما ذكره ابن النديم يتبين لنا النشأة المبكرة لعلوم القرآن ومدى الحرص البالغ من المسلمين على الاهتمام بكل ما يتعلق بالقرآن الكريم من علوم مختلفة ونتيجة لاتساع تلك العلوم وكثرة المؤلفات المدونة في كل واحد منها، فقد رأى العلماء أن يدونوا مؤلفات تحتوي خلاصة لتلك العلوم المتنوعة على سبيل الإجمال بحيث يكون ذلك مقدمة أو تمهيدا للوقوف على بعض تلك العلوم بشيء من التفصيل لمن شاء، وعلى هذا المنهج سار الزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتيان وغيرهما من العلماء في العصر الحديث وحتى يومنا هذا، وهذا هو المارد بالمعنى الاصطلاحي لعلوم القرآن. وإذا كنا قد عرفنا أن تاريخ علوم القرآن قد بدأ في عصر مبكر من تاريخ الإسلام فلنا أن نتساءل عن تاريخ تدوين علوم القرآن على النحو الإجمالي الذي أشرنا إليه يعني تاريخ المصنفات التي وضعت في ذكر (أنواع) العلوم المتخصصة بالقرآن، وتعرضها على سبيل الإجمال لا التفصيل. وإذا كان شأن 1- انظر: الفهرست لابن النديم - تحقيق محمد أحمد أحمد - المكتبة التوفيقية - بدون تاريخ، - 21 - هذا الحد، فماذا يكون شأن كل علم منها إذا فصل فيه القول على سبيل الاستقلال؟ وصدق الله إذ يقول: (قُلْ لَوْ كُنَّا أَلْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ^١ مَدَدًا) والحقيقة أن بداية تدوين (علوم القرآن) على الطريقة الإجمالية يكتنفه شيء من الغموض حتى لا يمكن للباحث أن يحدد تاريخا دقيقا لذلك، ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن، ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، وخاضوا في نكته وعبونه، وضمنته من المعاني الأنيقة والحكم الرشيدة، ما يهز القلوب طربا ويبهز العقول عجا، معينا للمفسر على حقائقه، ومطلعا على بعض أسارره ووقائعه" (2) وكلام الزركشي مشعر بأنه هو واضع هذه الطريقة الإجمالية للتأليف في علوم القرآن، ويؤكد على هذا ما ذكره السيوطي (ت 911هـ) في (الإتيان في علوم القرآن) تعقيبا على ما ذكره عن كتابه (التحبير في علوم التفسير) من تناوله لبعض مباحث علوم القرآن، غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك، أقدم رجلا وأؤخر أخرى، إذ بلغني أن الشيخ الإمام بدر الدين محمد - 22 - بن عبد الله الزركشي أحد متأخري أصحابنا الشافعيين، ألف كتابا في ذلك حافلا يسمى البرهان في علوم القرآن فتطلبته حتى وقفت عليه" (1) وما ذكره السيوطي يؤكد على أن واضع هذا النمط من التأليف في (علوم القرآن) هو الإمام الزركشي، علوم القرآن. ويدل على ذلك أيضا قوله قبل ذلك "ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتابا في أنواع علوم القرآن كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، وعين الأوان، أبا عبد الله محيي الدين الكافجي مد الله في أجله وأسبغ عليه ظله يقول: قد دونت في علوم التفسير كتابا لم أسبق إليه، فكتبته عنه فإذا هو صغير الحجم جدا، وحاصل ما فيه بابان: الأول: في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية. والثاني: في شروط القول فيه بالآري. وبعدها خاتمة في آداب العالم والمتعلم، فلم يشف لي ذلك غليلا، ولم يهديني إلى المقصود سبيلا. قاضي القضاة وخلاصة الأنام، وحامل لواء المذهب المطليبي، - 23 - ومجموعا ظريفا، ذا ترتيب وتقدير وتنويع وتحبير" (1). لكنه يتحدث عن الأنواع التي ذكرها الشيخ جلال الدين فيقول "ثم تكلم في كل نوع منها بكلام مختصر يحتاج إلى تحرير وتتمات، وزوائد مهمات" (2) وما ذكره السيوطي يؤكد

على عدم ذبوع هذا اللون من التأليف في علوم القرآن في عصر السيوطي وما قبله، وإنما هي طائفة يسيرة، ونبذة قصيرة: (فنون الأفنان في علوم القرآن) لابن الجوزي. و(جمال القرآن) للشيخ علم الدين السخاوي. و(المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز) لأبي شامة. و(البرهان في مشكلات القرآن) لأبي المعالي عزيز بن عبد الملك المعروف بشيذلة. وكلها بالنسبة إلى نوع هذا الكتاب كحبة رمل في جنب رمل عاج، ونقطة قطر في حيال بحر ازخر" (3) وابن الجوزي من علماء القرن السادس الهجري توفي (597هـ) وكذلك أبو شامة من علماء القرن السابع الهجري توفي (665هـ) فإذا علمنا هذا علمنا أن الزركشي المتوفى (794هـ) كان مسبقاً إلى هذه الطريقة من التأليف في علوم القرآن بطائفة من علماء القرن - 24 - السادس والسابع وأن كانوا قلة ولم يبلغوا مبلغه في الاتساع في ذكر أنواع علوم القرآن. علوم القرآن هو القرن السابع. مرتبة ولا متعاقبة من نسخة مخطوطة. واذن نستطيع أن نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أي إلى بداية القرن الخامس بدلاً من القرن السابع، ولقد كنت مشغولاً أن أق أر مقدمة كتابه هذا لأخذ اعت أرفاً صريحاً منه بمحاولته إنشاء هذا العلم الوليد، ولكن ماذا أصنع والجزء الأول مفقود غير أن اسم الكتاب يدلني على هذه المحاولة¹. لكن هذا ال أري الذي تفرد به الشيخ الزرقاني من التأريخ لبداية التدوين في (علوم القرآن) على النحو الإجمالي لا يمكن القول به اعتماداً على أن عنوانه يحمل اسم علوم القرآن وحسب، لا سيما وأن كني أري من المؤلفات قبل هذا التاريخ وبعده تحمل في عناوينها هذا التركيب دون أن تكون من هذا النمط من المؤلفات التي نتحدث عنها فيما يختص بعلوم القرآن على النحو الاصطلاحي، ومما يزيد رفضنا لهذا ال أري قول الشيخ الزرقاني نفسه بعد ذلك عن الكتاب "وكذلك استعرضت بعض الأجزاء الموجودة ف أريته يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم عليها من علوم القرآن، فيسوق وبعد أن يفرغ النحوية واللغوية، ثم يتبع ذلك بهذا العنوان: (القول في المعنى ثم ينتقل من الشرح إلى الوقف وما لا يجوز، في القول أريته)، وقد يتكلم في الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الآية عند عرضها ففي آية (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير²) (1) خير تجدوه عند الل) من سورة البقرة يذكر أوقات الصلاة وأدلتها، وأنصبه الزكاة ومقاديرها ويتكلم عن أسباب النزول وعلى النسخ وما إلى ذلك عند المناسبة، فأنت ترى أن هذا الكتاب أتي على علوم القرآن ولكن لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد بل على طريقة النشر والتوزيع تبعاً لانتشار الألفاظ المتشاكلة في القرآن وتوزعها، حتى كأن هذا التأليف تفسير من² التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات" ونحن بعد هذا العرض الذي عرض الشيخ الزرقاني لمنهج الحوفي في كتابه البرهان لا نجد مجالاً للشك في أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون تفسري أري للقرآن الكريم ولا علاقة له بطريقة المتأخرين عنه في التصنيف في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي أو الإجمالي. وعلى كل حال فإن كان من العسير أن نحدد بدقة تاريخ بدء التدوين في (علوم القرآن) بالمعنى الإجمالي أو الاصطلاحي فإن من المؤكد أن التدوين في علوم القرآن بهذا النحو صار في العصور المتأخرة - 26 - محل اهتمام كبير وعناية بالغة من علماء الدراسات القرآنية فألفت فيه العديد من المؤلفات، وإن كان كثير منها يقتصر على عرض طائفة يسيرة من العلوم القرآنية مفضلاً الإفاضة في ذكر جوانب تلك العلوم الغاية من علوم القرآن والغاية الرئيسية التي تسعى إليها علوم القرآن هي الوقوف على م ارد الله من كلامه وتبين أحكامه في قرآنه، والدلالة على إعجاز القرآن الدال على صدق النبوة لذلك فلا غنى للمفسر والباحث في إعجاز القرآن عن الوقوف على تلك العلوم القرآنية للاستعانة بها في تفسير القرآن وبيان إعجازه